(٣١) فتح الموصلي[١]

ذكر فتح الموصلي قدّسَ اللهُ سرَّه بلطفه:

كان رحمه الله من كبارِ المشايخ، وصاحبَ همَّةٍ عالية، وقدرٍ جليل، وفي الورع والمجاهدة بلا غايةٍ، والحزنُ والخوفُ غالبان عليه، مُنقطعًا عن الناس، وكان له مفاتيحُ كثيرةٌ مشدودًا بعضها إلى بعض موضوعةً عنده، يتوهَّمُ الناسُ أنه من التجار، ولا يعرفوه.

سأل شخصٌ واحد من الكبار: هل لفتح الموصلي علمٌ كثيرٌ أم لا؟ فقال المسؤول عنه: يكفي علمَه بأنّه تركَ الدُّنيا بالكلّية.

قال [أبو] عبد الله بن الجلاء: كنتُ عند السَّريِّ في بعض الليالي، فلمّا عبر الليلُ من النصف قام السريُّ ولبس ثوبًا[٢] نظيفًا، وارتدى برداءٍ، قلتُ: إلى أين؟ قال: إلى فتح الموصلي للعيادة. فلمّا خرجَ من البيت أمسكَهُ بعضُ الحرّاس وحبسه، وفي الغد جاءَ جلاّدٌ ليضربَ المسجونين، فلمّا انتهى إلى السريِّ، ورفعَ يدَه ليضربَهُ، بقيت يدُهُ في الهواء، قال السَّرِي: لِمَ لا تضربُ؟ قال: شيخٌ في حذائي واقفٌ ويَمنعني عن الضرب. فالتفتُّ إليه، فإذا فتحٌ، فتركوا السريَّ وأطلقوه، فذهب إلى فتح.

نقل أن رجلاً سألَ فتحًا عن الصدقِ، فأدخلَ اليدَ في كيرِ الحدّاد، وأمسكَ

---

(١) الثقات لابن حبان ٧/ ٣٢٢، حلية الأولياء ٨/ ٢٩٢، تاريخ بغداد ١٢/ ٣٨١، مناقب الأبرار ٢٥٠، صفة الصفوة ٤/ ١٨٣، معجم البلدان ٤/ ٤٢٨، المختار من مناقب الأخيار ٤/ ١٧٥، سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٥٠، طبقات الأولياء ٢٧٦، النجوم الزاهرة ٢/ ٢٣٥، نفحات الأنس ٤٢، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٨٠، الطبقات الكبرى للمناوي ١/ ٤٠٣، جامع كرامات الأولياء ٢/ ٢٣٣.

(٢) في (ب): كنت عند السري ولبس ثوبًا.

بقطعة حديدة محمَّرةٍ من النار، وأخرج، وقال: هذا هو الصدق.

قال: رأيتُ أميرَ المؤمنين عليًّا رضي الله عنه في المنام، واستوصيتُهُ، فقال كرّم اللهُ وجهه: ما رأيتُ أحسنَ من تواضعِ الغنيِّ للفقير رجاءَ الثواب. قلتُ: زدني. فقال كرّم الله وجهه وهو يوصيه: أَحسنُ من هذا تكبُّرُ الفقيرِ على الغنيِّ اعتمادًا له على الله تعالى.

نقل أنه قال: كنتُ في مسجدٍ مع جماعةٍ من الإخوان، إذ دخلَ شابٌّ عليه ثوبٌ خَلَق، وقال: تعلم أنّه يكونُ للغرباء رحلة، فأنتَ غدًا تعالَ إليَّ في المحلّةِ الفلانية ـ وأعلم بيته له ـ وأنا أكون ميتًا، فكفّني في هذا القميص، وادفني. قال الشيخ الموصلي رحمه الله: مضيتُ إليه من الغدِ، فوجدته ميتًا، فجهّزته وكفّنتُهُ في القميص كما أوصى، ودفنتُهُ، لكن لمّا وضعتُهُ في القبرِ، وأردتُ أن أخرج منه، فمدَّ يدَه وأمسكَ بذيلي، وقال: يا فتح، لي عند الله منزلةٌ، وأريدُ أن أكافئَكُ بما صنعتَ معي، فاعلم أن المرءَ يموتُ على ما كان عليه في حياته. قال هذا وسكت.

نقل أنه رحمه الله رئي يبكي، ويجري الدمُ مع دموعه، فسئل عنه، فقال: إنّي أذكرُ ذنبي، وأبكي عليها الدم من الخوف.

نقل أنه بُعث إليه خمسون درهمًا، فقال: ورد في الخبر: «من أُعطي شيئًا بلا سؤال، فردّه، ردّه الله»[(١)] فأخذ درهمًا، وردَّ الباقي[(٢)].

نقل عنه أنه قال رحمه الله: أدركتُ كم من المشايخ وصاحبتُهم وكلُّهم من الأبدال، ووصّوني جميعًا بالاحترازِ عن صحبة الخلق، وأمروني بقلّة الأكلِ أيضًا.

---

(١) روى الطبراني في الأوسط ٥/ ٢٠٦ (٤٨٢٤): أعطى عمر بن الخطاب عبد الله بن السعدي ألف دينار، فأبى أن يقبلها، فقال له عمر: إني قائل لك ما قال لي رسول الله ﷺ، قال: «إذا ساق الله إليك رزقًا من غير مسألة ولا استشراف نفس فخذه؛ فإن الله أعطاكه».

(٢) الخبر ليس في (ب).

ومن كلامه أنه قال: إذا مُنع الطَّعامُ والشراب من المريض يموت؟ قالوا: نعم. قال: فكذلك أيُّ قلبٍ مُنع عن العلمِ والحكمة وكلامِ المشايخ يموت.

قال: أهلُ الله قومٌ إذا نطقوا نطقوا بالله، وإذا حدّثوا حدّثوا عن الله، وإذا عملوا عملوا لله، وإذا طلبوا طلبوا عن الله.

من اشتاق إلى الله تعالى أَعرضَ عن غيره.

نقل أنه لمّا ماتَ فتحٌ الموصلي رئي في المنام، وسئل: ما صنع اللهُ بك؟ قال: قال لي: لِمَ بكيتَ كثيرًا؟ قلت: إلهي، حياءً من الذنوب. قال الله: يا فتحُ، أمرنا المَلَكَ الكاتبَ للسيِّئات أن لا يكتبَ عليك الخطيئاتِ أربعين سنة؛ لأجل كثرة بكائك.

اللهم بكرمك وإحسانك تبْ علينا، واغفرْ لنا إنَّك تّوابٌ غفور.

* * *